

لسانيات دو سوسير بين التمثل الغربي والتلقي العربي
**Linguistics de Saussure Between Western Representation
 and Arab Receptivity**

أ.لامية قداش¹

Researcher Lamia Kedache

جامعة أمجد بوقرة بومرداس الجزائر

University of Amhamed Bouguerra Boumerdes Algeria

lamiakedache@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/04/16

تاريخ القبول: 2019/12/30

تاريخ الاستلام: 2019/09/27

الملخص:

تعتبر لسانيات دو سوسير (de Saussure) من العلوم الفكرية التي تحتفي بها اللسانيات العربية عموماً، واللسانيات المغاربية خصوصاً احتفاءً كبيراً، فلا تكاد تجد لسانياتاً عربياً يكتب في اللسانيات دون أن تستوقفك عبارات وأفكار اللسانيات العامة لسوسير؛ حيث أحدثت اللسانيات الحديثة تطوراً لغوياً متميزاً وقدمت تحليلاً لسانياً عن طبيعة اللغة العربية في دائرة الثقافة اللسانية العربية الحديثة، ولعلّ العديد من الباحثين الذين استقوا مادتهم اللسانية العربية مع تطور فكر دو سوسير (de Saussure) اللساني، منذ بدايات الترجمات الأولى لللسانيات الغربية الحديثة على يد عبد الواحد وافي سنة 1941م، وانصبّ جلّ اهتمام الباحثين العرب برصد ما ذكر عن دو سوسير (de Saussure) في الفكر اللساني الحديث، ولكن في الحقيقة لم يتلقّى اللسانيون العرب لفكر دو سوسير (de Saussure) اللسانيات العامة) إلاّ النزر القليل الذي نُشر من أعمال دو سوسير (de Saussure) في كتابه (محاضرات في اللسانيات العامة)؛ لأنّ جلّ أعمال دو سوسير (de Saussure) كانت عبارة عن مخطوطات دونها وتلقفها طلابه من بعده و يسعى البحث إلى تتبع تلقى لسانيات سوسير بعد ظهور مخطوطاته في سنة 1996م والبحث في إشكالات وملامح هذا التلقي لدى اللغويين العرب ومدى تمثّل الغربيين لفكر سوسير.

الكلمات المفتاحية: التلقي الغربي؛ لسانيات سوسير؛ اللسانيات العربية؛ الماهية المزدوجة للغة، المخطوط.

Abstract:

Saussurian linguistics is among the most celebrated thoughts by Arabic linguistics in general and the Maghreb in particular. Thus we find in almost all the works of Arab linguists phrases,

expressions or ideas referring to the general linguistics of De Saussure.

Modern linguistics has achieved remarkable development and presented an analysis of the nature of the Arabic language in modern Arabic linguistic culture. Many Arab scholars have been inspired by the development of Saussurian thought since the beginning of the first translations of the work of modern linguists in the West by Abdel Wahid Wafi in 1941. Arab scholars have been interested in all that was mentioned on De Saussure in modern linguistic thought. However, Arab linguists have received little of the thought of De Saussure found in the manuscript written by his students after him.

The present study aims to enlighten readers on the reception of Saussurian linguistics after the publication of his work in 1996 and to explore the problems as well as the aspects of this reception by arab linguists and also the The extent to which Westerners represent the thought of Saussure.

Keywords: Western reception, Saussurian linguistics, Arabic linguistics, the dual essence of language .

مقدمة:

إنّ التلقّي العربيّ للسانيات سوسير الجديدة (لسانيات المخطوط) تمثّل مرحلتين مهمّتين من سمات التلقّي للسانيات سوسير أوّلا مرحلة التلقّي غير المباشر التي تمثّل عمليّة البحث عن مصادر وأصول دروس في اللسانيات العامّة ومرحلة التلقّي المباشر وهي مرحلة تلقّي كتابه (محاضرات في اللسانيات العامّة)، واختلف التلقّي المباشر حسب عوامل ثلاثة أساسية: أ- الحقبة الزمنية التي تمّ فيها هذا التلقّي، ب- المنظور المعرفيّ الذي تمّ من خلاله هذا التلقّي ج- طبيعة نصوص سوسير المعتمدة في التلقّي، وتمثّلت هذه المرحلة من التلقّي المباشر لدى اللسانيين العرب بسهولة مع كلّ النزاعات الفكرية والفنية الوافدة إليهم من أوروبا ولاسيما من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا ويدمجونها في محيطهم الثقافيّ المعرفيّ العربيّ، وتكيّفها مع المعطى اللسانيّ العربيّ في اللّغة العربيّة وعرفت مرحلة التلقّي المباشر مُتلقيّين عرب آخرين أو مؤوّلين آخرين، وهم الذين ابتعدوا عن التقليد المباشر أو التّأويل العادي للسانيات سوسير، فأدجوها ضمن ما قدّموه من تصوّرات جديدة في بعض فروع اللسانيات.

ويأتيّ البحث ليحجّب عن الأسئلة التالية: ما هي الملامح الجديدة للسانيات في سياق التلقّي الجديد لفكر دو سوسير؟ وما هي أهمّ سماته؟ وكيف تمثّلت مرحلة التلقّي المباشر عند علماء الغرب وعلماء العرب؟

أولاً: التمثّل الغربي لفكر دو سوسير:

لم يخلُ كتاب في اللسانيات منذ مطلع ثلاثينيات القرن الماضي من ذكر لأهم مآثر دو سوسير (de Saussure) اللسانياتية كما هي مبثوثة في كتاب المحاضرات "بيد أنّ المتأمل في تاريخ الدراسات اللسانياتية السوسيريّة من شأنه التمييز في تلقّي محاضرات دو سوسير (de Saussure) في اللسانيات العامة لدى الغرب بين مراحل أربع: مرحلة أولى تشمل العقود الثلاث الأولى من القرن العشرين، ومرحلة ثانية تبدأ بانعقاد المؤتمر العالمي الأول للغويين العام 1928م وتمتد حتى نهاية الحرب العالميّة الثانية ثم تليها مرحلة ما بعد الحرب العالميّة الثانية وتنتهي ببداية المرحلة الرابعة التي تتزامن مع بداية إخراج مخطوطات دو سوسير (de Saussure) الأصليّة إلى الناس وتحقيقها"¹ وهذه المراحل تختلف اختلافا كبيرا في الأمصار الغربية بحيث لم يلق كتاب المحاضرات القبول الحسن أثناء نشر هذا الكتاب ولم يرض جمهور اللغويين عن بعض محتويات الكتاب أين تم نقده ومن بين هؤلاء انطوان ماويه (Antoine Meillet) من المدرسة الفرنسيّة و انتقادات إيغو شوشار (H.Schuchardt) الذي يمثّل المدرسة الألمانيّة وتحفظات أوتويسيرسن (Otto Jespersen) ممثّلا للمدرسة الدنماركية وردود ليونارد بلومفيلد (Leonard Bloomfield) ممثّلا للمدرسة الأمريكيّة، ومن بين المسائل التي قوبلت بالرفض نجد موضوع اللسانيات والفصل بين الدّراسة الآتيّة للسان والدّراسة التاريخيّة وهذه المرحلة لم تحض باهتمام المؤرخين مقارنة بالمرحل الأخرى.

ولعلّ هذه المقاربات اللسانيّة عورضت بشكل لافت للانتباه في كتاب محاضرات وقوبلت بالنقد والاعتراضات اللاذعة ومن بين تلك المسائل التي قوبلت بالنقد والرفض "مسألة موضوع اللسانيات وهي مسألة نحسبها ذات أهميّة إبستمولوجية بالغة وهي تلك التي عبرت عنها الجملة التي اختتم بها الناشرين الكتاب: "إنّ اللسان هو موضوع اللسانيات في ذاته ولذاته وهو موضوعها الوحيد والحقيقي وهي الجملة التي أثبت روبر غودال (Robert Godel) عدم صحّة انتسابها إلى دو سوسير (de Saussure)"² ولقد بحث روبر غودال (Robert Godel) في هذه المسألة وأثبت عدم صحّة انتسابها إلى دو سوسير (de Saussure) في المرحلة الرابعة أين اكتشف اللغويون ما اعتري كتاب المحاضرات من نقائص وإضافات واختلالات وتعديلات.

وقد تفاوت التلقّي الفرنسي لمحاضرات دو سوسير (de Saussure) في اللسانيات العامة بين مقبلٍ ومدبر وبين متدبّر ومتجاهل بحيث "أخذ أنطوان ماويه (Antoine Meillet) دو سوسير (de Saussure) إقصاءه للكلام من حقل تحريّات اللسانيات وحصر موضوعها في اللسان والاستغناء عن باقي الوقائع اللسانية الأخرى وهو تصوّر يتنافى في نظره مع ما انفكت تقرّه الدّراسات الصوتيّة آنذاك، فهذه الأخيرة لا يمكن لها أن تزداد قربا من اللسان إلاّ من خلال مدارس دقيقة ممعنة في التفاصيل للكلام"³ و يعدّ أنطوان ماويه (Antoine

(Meillet) أوّل من تحدّث عن كتاب محاضرات مباشرة بعد صدوره كما تبّه إلى أنّ هذا الكتاب لا يقدّم عرضاً تاماً ونهائياً لقضايا اللسانيات العامة واعتراض على ما في ثنائية لسان / كلام من دعوة إلى إبعاد الكلام وعناية خاصة باللسان فقط كموضوع وحيد للسانيات " ذلك أن الوصول إلى وصف دقيق للسان لا يتأتى إلا بدراسة الكلام والمشكل الحقيقي الذي لم يتناوله دو سوسير (de Saussure) مباشرة حسب مبيّه هو كيف يمكننا وصف لسان معين انطلاقاً من ملاحظة الكلام"⁴ وأكبر اعتراض واجه دو سوسير (de Saussure) في ثنائية اللسان والكلام إيجاد وصف دقيق وعميق للفرق بين اللسان والكلام إذ لا يمكن ولا يتأتى وصف اللسان إلا بدراسة الكلام وصولاً إلى اللسان ومنها وصولاً إلى اللغة.

ولعلّ أهمّ المسائل التي باتت تشغل غوستاف غيوم (Gustave Guillaume) بعد تواصله مع كتاب المحاضرات التميّز بين الدراسة الآتية والدراسة التاريخية والفصل بين اللسان والكلام والانتقال من هذه الثنائية إلى ثنائية جديدة هي ثنائية اللسان والخطاب⁵ ونجد جيل فندريس (J.Vendryés) حذا حذو أستاذه أنطوان ميه (Antoine Meillet) في ردّ عدد من المسائل النظرية التي احتوى عليها كتاب المحاضرات وبدا موقفه منها بارزاً في التقرير الذي أعده سنة 1921م عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة ومنها مفهوم الكلام؛ إذ على الرغم من إقراره بأهميّة تمييز دو سوسير (de Saussure) بين اللسان والكلام فإنّ الخصائص التي استعان بها دو سوسير في هذا التمييز لا بد من إعادة النظر فيها، "وسواء علينا اتخذنا اللسان أو الكلام فإنّ اللغة تبرز دوماً منظمة بقواعد اجتماعية، بل يمكننا القول أيضاً بأنّها فضلاً عن ذلك الحدث الاجتماعي الأساسي والجوهري، إنّ اللغة هي التي ترسخ الفكر الإنساني وهي التي مكّنته من الخروج من سديميته ولقد ارتقى العقل بفضل اللغة إلى مرتبة التعميم والتجريد ذلك لأنّ الكلمات علامات تمكّنا من إجراء عمليات على أفكارنا مثلما نقوم بذلك بفضل الأعداد والأرقام لكن اللغة ما كان لها أن تستقرّ إلا بإعمال قواعد عقد اجتماعي⁶ ولا يمكن عزل اللغة في إطار ضيق أو زاوية ضيقة فعلاقة اللغة بالحيث الاجتماعي جوهرياً، وثمة جوهر السمات الاجتماعية التي تحملها اللغة كمادة خام تصنع هذا المجتمع وتنظمه بقواعده الاجتماعية اللغوية العرفية في عقد اجتماعي فقد ارتقى المجتمع بمعايير اللغة وظواهرها وضوابطها الاجتماعية اللغوية.

ومن الجانب الألماني نجد إيغو شوشار (H.Schuchardt) الذي كان " أوّل من ألمح إلى محتوى كتاب المحاضرات في اللسانيات والإشادة بمحتوياته الجديدة سنة بعد صدوره وأعدّ عن نشره تقريراً مستوفياً ناقش فيه عدداً من المسائل التي احتوى عليها الكتاب من مثل التمييز بين اللسان والكلام وبين الآتية والدياكرونية ومفهوم التسق وغيرها من المسائل التي نود التعريف بموقفه منها"⁷ و لقد اتّسم موقف إيغو شوشار (H.Schuchardt) من الأفكار اللسانية التي احتوى عليها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بالنفور والازدراء.

وقد كان لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أثرًا بليغًا في أدبيات اللسانيات الدنماركية أيضا بحيث " بلغ هذا التأثير ذروته حينما تعرّف لويس يمسليف (Louis Hjelmslev) على كتاب المحاضرات فكان له نصيب وافر في الحوارات والمبادلات الأدبية التي تمحورت في دائرة البنويّات حول أهمّ المفاهيم اللسانية التي نسبت إلى دو سوسير (de Saussure) آنذاك وبرز هذا التأثير في كتاباته التي تناولت جملة من المسائل اللسانية التي نظر فيها دو سوسير (de Saussure) من مثل مفهوم النسق والتمييز بين اللسان والكلام وبين الآتية والدياكرونية وغيرها من المفاهيم التي تشكّل بها الجهاز المصطلحيّ للنظريات البنوية خلال المرحلة الثانية من مراحل تلقّي فكر دو سوسير (de Saussure) اللسانياتي والسيميايتي⁸ إنّ أثر دو سوسير (de Saussure) في كتابات يمسليف (Louis Hjelmslev) عميقا بحيث أسهم في بلورة نظريته اللسانية فمن كتاب المحاضرات استقى نظريته تلك واستطاع أن يبرز أفكار دو سوسير ويعبّر عنها تعبيرا صادقا تاما.

أمّا أوتو يسبرسن (Otto Jespersen) فلقد قدّم نقدا لثنائيات دو سوسير (de Saussure) كما أنّه أعدّ تقريرا بمناسبة نشر كتاب المحاضرات ووصف التمييز بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام بالتّرف الفكريّ " خلص إلى الإقرار بأنّ كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لا يليق به أن ينعت بكتاب في اللسانيات العامة"⁹ جاءت هذه الوصفة العلمية النقدية لكتاب محاضرات في اللسانيات العامة بعد دراسة شاملة ومسح كامل لما في الكتاب من موضوعات اللسانيات العامة؛ حتّى تمّ الوقوف على عورات مؤلّفي هذا الكتاب شارل بالي (Charles Bally) و ألبير سيشهاي (Albert Sechehaye).

وتأخّرت اعتراضات ليونارد بلومفيلد (Leonard Bloomfield) في إعداد تقريره عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلى سنة 1924م سنتين بعد صدور الطبعة الثانية منه، لقد غاب على التلقّي الأمريكي جملة المسائل التي اتّصلت بفكر دو سوسير (de Saussure) السيميائي من مثل مفهوم النسق والعلامة وغيرها من المفاهيم المرتبطة بهما كالقيمة وثنائية المماثلة والمخالفة وغيرها كما باتت المسائل اللسانية الأخرى التي احتوت عليها أقسام الكتاب الأخرى غير ذات أهمية للاعتقاد بأنّ ما قيل عنها في كتاب المحاضرات لا يعدو أن يكون مجرد تكرار لما كان متداولًا في أدبيات لسانيات القرن التاسع عشر¹⁰. وقد تأخّر التلقّي الأمريكي للمنعرج الجديد والحاسم الذي تغيّرت فيه مسارات اللسانيات عند الألمان والفرنسيين وغيرهم من مخطوطات دو وسوسير (de Saussure) التي كشفت مبكرا عند غودل (Robert Godel) وإنغلا وغيرهم من الباحثين في جامعات ألمانيا وفرنسا، ولم يكن الباحثون في أمريكا يعيرون اهتماما لهذا المنعرج الذي ساد ظنا منهم أنّه اجترار لما ساد في القرن التاسع عشر.

وأما تلقّي كتاب (المحاضرات في اللسانيات العامة) من قبل اللغويين الروس نماز بعنايتهم بمدارسة الآثار الأدبيّة من شعر ونثر خلافا لمعاصريهم من النّحاة الجدد الألمان ومن انتهج منهجهم في مقارنة الألسن مقارنة تاريخية لا تلتفت إلى الآثار المكتوبة من شعر ونثر، بل تدعها إلى أصحابها من متعهدي الفيلولوجيات القديمة وفضلا عن هذا التوجه الأدبي فقد أسهمت الدراسات اللسانية التي عيّنت بمدارسة اللهجات الروسيّة ونشأة علم اللهجات (dialectologies) الروسي إلى التّخفيف من وطأة استفحال الدراسات التاريخية المقارنة¹¹ لكن الانتقادات التي وجهت لتصورات دو سوسير (de Saussure) اللسانية في أثناء هذه المرحلة تختلف عن تلك التي وجهت لها في المرحلة السّابقة، إذ بات عند اللغويين الروس انطباع بأن لغويّ مدرسة جنيف لاسيما شارل بالي وألبير سيشهاي ما أحسنوا التّعبير عن آراء أستاذهم اللسانية فتسلل إليه قدر غير قليل من الخلل والاضطراب وهو ما قد يفسر من جانب ما الإقبال الذي حضي به كتاب المحاضرات والانتقادات إلى لسانيات دو سوسير لصلة القرى بينها وبين بعض تصورات عدد من اللغويين الروس لاسيما بودوان دو كرتوني (Baudouin de Courtenay)، فيلم ماتسيوس (V Mathessius) وغيرها¹² ولم يأت تلقّي الروس لمخطوطات دو سوسير (de Saussure) بأمر الهين لاعتناقهم لأفكار كتاب محاضرات في اللسانيات العامة أولا ثمّ بعد ذلك أعادوا النظر في ما وجه إليه معظم الباحثين اللغويين عندهم إلى الانتقادات للخلل والاضطراب في كتاب محاضرات "وبعدّ كتاب الماركسيّة وفلسفة اللّغة من بين المؤلّفات الروسيّة المبكّرة التي أسهمت في التعريف بأهم الأفكار اللسانية التي احتوى عليها من مثل التميّز بين اللّغة واللسان والكلام واللّسانيات الآيّة واللّسانيات التاريخية"¹³ وبدا هذا التحوّل والانتقال من تصوّرات كتاب محاضرات إلى مخطوطات دو سوسير (de Saussure) وانتقال الاهتمام بتصورات دو سوسير (de Saussure) اللسانية إلى الفكر اللسانياتي الروسي لم يكن بادئ الأمر عن طريق أعضاء حلقة براغ بل إنّ أعضاء من حلقة موسكو كان لهم دور حاسم في الترويج لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لدى جمهور اللغويين الروس في السنوات الأولى التي تلت نشر الكتاب بجنييف سنة 1916 والتعريف ببعض محتوياته لاسيما تلك التي بدت قاسما مشتركا مع تصوراتهم اللسانية لاسيما إمكانية مقارنة الألسن مقارنة آنيّة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي مارسها النّحاة الجدد بألمانيا¹⁴ ومن العسير لدى علماء اللّغة الروس الانتقال من كتاب محاضرات لأهم أسسوا عليه نظريات واجتمعت عليه حلقات ومدارس كحلقة براغ وأعضائها الروس وحلقة موسكو بالخصوص وما توالى بعدها من المدارس اللسانية كالشكلايين الروس.

ومن الصعب على اللسانيين الشكلايين التخلّص من أفكار وتصوّرات (Charles Bally) و ألبير سيشهاي (Albert Sechehaye) في كتاب محاضرات في اللسانيات العامة، وعلى

رأس هؤلاء الشكلايين لويس هلمسليف (louis Hjelmslev) الذي تأثر أيما تأثر "وتعد تصورات لويس هلمسليف (louis Hjelmslev) في خطوطها العامة استمرارا لتصورات سوسير في دروس في اللسانيات العامة وتطويرا صوريا لها، إذ أعاد صياغة المفاهيم السوسيريّة صياغة جديدة أضفى عليها بعدا تجريديا عميقا شكلايّا دقيقاً ساعد على تدقيقها... كما تحلّى إجمالاً عن التشبيهات المجازية والحمولات التي استمدتها المفاهيم اللسانية السوسيرية من علمي النفس والاجتماع لاسيما ثنائية لسان/كلام ومفهوم الاعتباطية ومفهوم البنية والنسق(العلاقات) واقترح لويس هلمسليف (louis Hjelmslev) مصطلحات جديدة للمفاهيم السوسيريّة فاستعمل مصطلح تعبير (expression) مكان دال ومضمون (contenu) بدلا عن مدلول وغيرها من المصطلحات البديلة لمصطلحات دو سوسير (de Saussure) مثل خطاطة (schema) واستعمال (usage)¹⁵ ولم يستطع لويس هلمسليف (louis Hjelmslev) التخلص من أفكار كتاب محاضرات في اللسانيات العامة بعد قراءته لكتاب محاضرات غير أنّه حاول تحوير بعض المفاهيم ووضعها في موضع ووضع مغاير لا يتعد فيه عن أفكار كتاب محاضرات، وأمّا "موضوع اللسانيات عند لويس هلمسليف (Louis Hjelmslev) هو اللسان أيضا وهي الفكرة التي ختم بها الناشران دروس في اللسانيات العامة حين قالوا قولتهما الشهيرة... لكن مفهوم اللسان عند دو سوسير (de Saussure) في إطار ثنائية لسان-كلام يبدو حسب لويس هلمسليف (louis Hjelmslev) غير دقيق تماما وبالتالي لا يصلح ليكون مفهوماً عملياً وأساسياً في النظرية اللسانية التي يتوخّى بناؤها"¹⁶ وقد عارض لويس هلمسليف (louis Hjelmslev) بعض أفكار كتاب محاضرات وحاول نقدها ووصفها بالخروج عن المفهوم العلميّ في النظرية اللسانية والمنهجية العلمية التي تؤسس لها، لما توهمه شارل بالي (Charles Bally) و ألبير سيشهاي (Albert Sechehaye) بأنّ موضوع اللسانيات الأساس هو اللسان، دون التركيز على الكلام معه. وقد عمل كارشيفسكي (Karcevski) على نشر آراء دو سوسير (de Saussure) اللسانية والتعريف بها من خلال تقديم عدد من المداخلات بأكاديمية العلوم بموسكو واجتهد في الاستفادة منها في بحوثه في اللسان الروسي¹⁷ وجاءت أعمال دو سوسير (de Saussure) المخطوطة متأخرة نسبياً مع ما ساد الواقع الروسيّ من كتاب المحاضرات، ورغم الاعتراضات الأولية النقدية التي وقف عليها اللغويين الروس لم تكن تنصب دراساتهم في الكتاب في التقّد شأنهم في ذلك شأن كل الباحثين في العالم الذين انبهروا بكتاب محاضرات في اللسانيات العامة الذي نشر في فترة أو بعد الحرب العالمية الثانية خاصّة أن أفكاره جاءت في وضع تازم للعالم بأكمله، فالعالم يعيش ويصنع حربا ودو سوسير (de Saussure) يعيش ويصنع فكراً.

ثانيا: تلقّي كتاب محاضرات في اللسانيات العامة عند العرب:

يعد دو سوسير (de Saussure) من المفكرين المحترفي بهم في القطر العربيّ فلا يخلو أيّ كتاب عربي في اللسانيات من إشادة بأفكار هذا العالم الفذ، فلقد أحدث ثورة إبتيمولوجية غيرت مسارات الفكر اللساني ولقد ترجم كتابه وما يزال إلى يومنا هذا موضوع نقاش وجدل بين مؤيدين ومعارضين لفكره اللغوي والمنهجي للمنهجية التي انبثقت عن لسانياته ونقصد هنا المنهجية البنوية ولا تزال نصوصه محور بحث وتنقيب من قبل الدارسين. وإن تلقى لسانيات دو سوسير (de Saussure) في الأقطار العربية لم يتم مباشرة، بل عن طريق الترجمة " إن لسانيات دو سوسير (de Saussure) لم تصل إلينا مباشرة وإنما نتيجة لتأويل مزدوج يتمثل أولهما فيما فهمه الطلبة من دروس أستاذهم ونقلوه عنه، وثانيهما فيما استخرجه بالي وسيشهاي انطلاقا من ملحوظات بعض الطلبة وبعض النصوص المخطوطة لسوسير (de Saussure)" ¹⁸ ترجم إلى اللغة العربية خمس ترجمات أولها تاريخيا ترجمة يوسف غازي ومحمد النصر بعنوان "محاضرات في الألسنية العامة فرديناند دو سوسير سنة 1984م" وبعدها ترجمة نعيم الكراعين بعنوان فصول في علم اللغة العام ف. دوسوسير وترجمة صالح القرمدي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة بعنوان دروس في الألسنية العامة فرديناند دو سوسير سنة 1985م، وترجمة أخرى أنجزها الدكتور يوثيل يوسف عزيز بعنوان: علم اللغة العام سنة 1985م، وترجمة عبد القادر قنيني بعنوان: محاضرات في علم اللسان العام سنة 1987م ¹⁹ فتلقى فكر دو سوسير (de Saussure) في الدراسات اللغوية العربية تنوع بتنوع وتباين وجهات نظر الباحثين المعرفية ورؤاهم الفكرية.

وقد كانت الدراسات اللغوية العربية منصبه طوال العصور السابقة على ما ورثته من الدراسات اللغوية القديمة إلى غاية عصر النهضة والذي كان البداية الحقيقية لاتصال الحضارة العربية بالحضارة الغربية، والتي ساهمت في اطلاع الثقافة العربية على العلوم الغربية ومن بينها اللسانيات إحدى العلوم الإنسانية التي عرفها القطر العربي بفعل البعثات، ومن بين اللغويين العرب الذين عملوا على تقريب هذا العلم الحديث إلى القارئ العربي علي عبد الواحد وافي في كتابه الموسوم ب: علم اللغة الصادر عام 1941م وقد ألفه صاحبه على حدّ قوله حين " لم يكتب في هذا العلم باللغة العربية -على ما أعلم- مؤلف يُعتدّ به... حيال هذا رأيت أنّ الواجب يُحتم عليّ -وقد وقفت قسما من جهودي على هذا العلم، وقمت بتدريسه مدة طويلة أن أقوم بأول محاولة في هذا السبيل" ²⁰ ولقد طغى على كتابه الطابع الفيلولوجي ويعزى ذلك إلى تأثره بما ساد في تلك الفترة (سيادة وسيطرة كراسي الفيلولوجيا التاريخية في جامعات أوروبا طوال منتصف القرن الأول من القرن العشرين)، مع ذلك كان له فضل سبق في رسم معالم البحث اللغوي عند العرب ثم توالت جهود كثيرة التي سعت إلى تقديم أسس هذا العلم ومفاهيمه للقارئ العربي أمثال: إبراهيم أنيس وعبد الرحمن أيوب وتمام حسان وكمال بشر ومحمود السعران، فالناظر في مجمل الدراسات اللسانية العربية الحديثة يجدها على

صنّفين، فالصنّف الأوّل يهدف إلى التعريف باللّسانيات العامّة من خلال ترجمات لمؤلفات غربية، أمّا الصنّف الثّاني فيدرس قضايا لسانيّة دقيقة مطبقة على اللّغة العربيّة في ضوء نظريّة من التّظريّات اللّسانيّة مع العلم أنّ بوادر هذه الكتابات اللّسانية أخذت مسارها في المشرق العربيّ بداية الأربعينات من القرن العشرين في حين أنّ بلدان المغرب العربيّ لم تكون قد عرفت هذا العلم إلاّ مع بداية السّتينات وتختلف تلك الكتابات اللّسانية تبعاً لاختلاف الموضوع والمنهج والغاية أمّا الموضوع فهو المادة التي تتناولها وتتوزع في: النظريات اللّسانية؛ مبادئها ومناهجها وما يتّصل بها التراث اللّغويّ العربيّ القديم، اللّغة العربيّة موضوعاً للدراسة اللّسانية في حين المنهج فهو يعني تلك الوسيلة التي تتخذها هذه الكتابات قصد الوصول إلى تحقيق غايتها والتي تتوزع بين المنهج الوصفي والتاريخي والمقارن، أمّا الغاية فهي الهدف الذي ترومه هذه الكتابات من تبسيط المعرفة اللّسانيّة وتقريبها للقارئ العربيّ واقتراح وصف جديد للّغة العربيّة أو تفسير للظواهر اللّغويّة العربيّة من منظور جديد.

وليس بإمكان المتبع لللسانيات في الوطن العربيّ أن ينكر جهود روادها أمثال: تّمام حسّان وإبراهيم أنيس وكمال محمّد بشر وأنيس فريجة وأحمد مختار عمر الذين أسهموا أيّما إسهام في إثراء المكتبة اللّغوية العربيّة بالعديد من الدّراسات والمقدمات النّظريّة والتّطبيقية في اللّسانيات الحديثة وما يعاب على هذه الدّراسات هو طابعها الانتقائي في انتقاء مفاهيم معيّنة من اللّسانيات العامّة من دون تبرير منهجيّ أو نظريّ مثلما يذهب إلى ذلك مصطفى غلفان، ثمّ إنّ نقل هذا العلم (اللسانيات) يتطلب نقله من سياقه المعرفي الغريّ إلى سياق الثقافة العربيّة لهذا " وجدت اللّسانيات العربيّة نفسها أمام ضرورة إقامة وضع جديد في البّحث اللّغوي العربيّ؛ وحيث إنّ قيام هذا الوضع كان مرتبطاً بضرورة نقل اللّسانيات الغريّة من سياقها المعرفي إلى سياق ثقافة أخرى هي الثقافة العربيّة"²¹ وجاء هذا التحوّل اللّسانيّ الغريّ في سياق التلقّي الجديد إذ قدّمت اللّسانيات الحديثة نظريّات تحليلية للّغة مختلفة عمّا ألفوه وما ألفناه في تحليلات القدامى من اللّغويين والتّحاة العرب.

ثالثاً: ملامح تلقّي دروس في اللّسانيات العامّة عند اللّغويين العرب

لقد بذل اللّسانيون العرب جهوداً لتقديم معارفهم العلميّة بهذا العلم إلى القارئ العربيّ وبالتالي وجدت اللّسانيات طريقها إلى الأوساط العلميّة العربيّة بفعل الكتابات اللّسانيّة التمهيديّة التي سعت إلى تبسيط المعرفة اللّسانيّة بهذا العلم للقارئ العربيّ ونكون بذلك مع التلقّي غير المباشر بين هذا العلم وهذا القارئ " فمما لا شك أنّ الكتابات اللّسانيّة التمهيديّة التي تضمنتها المكتبات العربيّة قد ساهمت بشكل إيجابي وعملي في تقريب اللّسانيات إلى القارئ العربيّ... وقد نجحت هذه الكتابات في مهمتها التاريخيّة محققة بذلك هدفها الأساسي في نشر الفكر اللّساني الحديث داخل أوساط الثقافة العربيّة... غير أنّ هذا لا يمنعنا من القول بأنّ النجاح الذي حققته المؤلّفات الأولى بدأ اليوم يتراجع لأسباب عديدة

بعضها يتعلق بالكتابة التمهيدية نفسها وبعضها يرتبط بمسائل أخرى تخرج عن طبيعة هذه الكتابة²² وهدفت الكتابات اللسانية التمهيدية إذن إلى تبسيط المعرفة اللسانية للقارئ العربيّ ويتحدّد معظمها من خلال عناوينها التي تناشد هذا القارئ من مثل: مدخل إلى اللسانيات، مبادئ اللسانيات، المدارس اللسانية المعاصرة، مدخل إلى المدارس اللسانية، في اللسانيات العامة، مبادئ اللسانيات البنيوية ومما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه المؤلفات اللسانية التمهيدية منها ما اقتصر على تقديم نظرية لسانية أو اتجاه بعينه (بنوي، توليدي تحويلي، أو وظيفي) إلى القارئ العربيّ، ومنها ما عملت على تقديم كل النظريات اللسانية الغربية وعلى العموم فهذه الكتابات منها ما اكتفت بالتأليف فحسب وهناك من تجاوزته إلى الكتابة في لسانيات التراث واللسانيات العربية المتخصصة "وليس من الموضوعية نكران ما لهذه الجهود من فضل في رسم مبادئ عامة عن اللسانيات للقارئ العربيّ بصفة عامة لكن قصور معظم هذه الكتابات اللسانية التمهيدية هو اضطرابها في تحديد غايتها أو المستهدف بكتاباتها من القراء"²³ كما يقول مصطفى غلفان "اختلف تلقّي نص دروس في اللسانيات العامة منذ ظهوره حسب عوامل ثلاثة أساسية:

أ- الحقبة الزمنية التي تم فيها هذا التلقي.

ب- المنظور المعرفي الذي تم من خلاله التلقي.

ج- طبيعة نصوص سوسير المعتمدة في التلقي"²⁴ فقد دعا بعض اللغويين العرب إلى ضرورة ربط مبادئ البحث اللساني الحديث بالفكر اللغوي العربي القديم، وهذا الضرب من النشاط اللغوي بدأ مع إبراهيم أنيس في كتابه "الأصوات اللغوية" 1947 والذي وسمّه الباحثون بلسانيات التراث" وهي تستهدف دراسة الفكر اللغوي العربي القديم من حيث إنّه تصورات ومفاهيم وطرائق تحليل في ضوء النظريات اللسانية الحديثة... والسمة المميّزة لهذا النوع من الخطاب اللساني العربيّ الحديث هي سعيه إلى التوفيق بين مضامين التراث اللغوي العربي وما تقدمه اللسانيات الحديثة من نظريات ونماذج وأدوات إجرائية وطرائق تحليل"²⁵ واللسانيّين التراثيين يستعملون شتى الوسائل المعرفية لتحقيق هذا المسعى فيما عرف بقراءة أو إعادة قراءة التراث والهدف من كل ذلك إبراز قيمة التراث العربي وإعطائه المكانة التي يستحقها ضمن الفكر اللساني الحديث "فإنّ المقارنة أولاً والتطعيم ثانياً والقولبة والتمحيص والاحتكاك ثالثاً مجسّد المظاهر الفكرية الأساس للتفاعل المنشود بين الفكر اللغوي العربي القديم والنظريات اللسانية الحديثة"²⁶ ويذكر عبد السلام المسدي في كتابه "التفكير اللساني في الحضارة العربية" أن طريقته في إعادة قراءة التراث اللغوي العربيّ تعتمد بعض المقولات اللسانية الحديثة منوها بدور اللسانيات في عملية إعادة القراءة ذاتها يقول "فضل اللسانيات المعاصرة في بلوغ عملنا تمامه فضل جوهرى فهي التي وفرت لنا سبل التمازج بين حقول المعرفة وهي التي أوصلتنا إلى مرتبة التأليف الشمولي بل هي التي أمدتنا أساساً بمقولة القراءة

من حيث هي مجهر يستكشف النَّصّ بالنّصّ فيجعل الكلام رواية لذاته وحجة على نفسه"²⁷ ومّا يمكن التنويه به أنّ لسانيات التّراث لم تتجاوز منذ انطلاق مشروعها الحضاري حدود صناعة خطاب لغوي منمق أي لم تتمكن من تخطي مرحلة إعادة القراءة نفسها بحيث "أسند للتّراث اللّغوي العربيّ هويّة نظريّة متعدّدة الأشكال والألوان غريبة عنه من حيث الجذور والأصول وهي هويّة هجينة جمعت في آن واحد بين مختلف المكونات والاتجاهات التي رسمت ملامح اللّسانيات في أوروبا"²⁸ ونجد أن كل دارس قد جلب معه عدة لسانيّة غريبة وحاول بها أن يهوى على التّراث فيعيد تأليفه وفق النّظريّة التي درسها وتشبع بها هذا الدارس أو ذاك مثلما يظهر مع ميشال زكريا والفاسي الفهري وأحمد المتوكل وغيرهم.

رابعاً: تلقّي مخطوطات دو سوسير عند العرب:

بعد انتشار كتاب محاضرات في اللّسانيات العامّة في الثقافة العربيّة وسيطرته على أذهان بعض الدارسين، ظهرت لسانيات دو سوسير من جديد لتطرح وتعالج علماً جديداً ظهر في مخطوطات دو سوسير و" كان أول نشر جزئي لهذا المخطوط من عمل رودلف أنغلر (Rudolf Engler) سنة 1997م وكان المخطوط حينها لا يزال في طور التّحقيق ولذلك لم يكن في متناول الباحثين واقتصر النّشر بعد ترخيص من مكتبة جنيف وعائلة دو سوسير على أربع ورقات عرضهن أنغلر في شكل عمودين يحتوي العمود اليساري على تدوين للنّصّ الأصلي والعمود اليميني على النّصّ محقّقاً... ولقد بقي المخطوط في غير متناول الباحثين إلى غاية سنة 2002م، تاريخ نشره محقّقاً من قبل سيمون بوكي (Simon Bouquet) ورودلف أنغلر (Rudolf Engler) ضمن السّلسلة الفلسفيّة لدار غليمار سنة 2002م ضمن نصوص أخرى لدو سوسير (de Saussure)"²⁹ وقد جاء هذا التلقّي العربيّ متأخراً نسبياً عمّا راج في الأنحاء العربيّة من انتقادات واعتراضات لكتاب محاضرات في البدايات الأولى، ثمّ تمّ الاكتشاف لعدد ضخم جداً من المخطوطات ظهرت منها اللّسانيات الجديدة ترفض وتغيّر المفهومات الخاطئة في كتاب محاضرات في اللّسانيات العامّة.

وقد شوّهت تلك الإضافات التي أضافها كلّ من بالي وسيشهاي شارل بالي (Charles Bally) و ألبير سيشهاي (Albert Sechehaye) فكر دو سوسير (de Saussure) ولكن في المقابل لا أحد ينكر مزايا هذا المجهود الذي أخرج فكر سوسير للعيان بحيث غير مسار الدّراسات اللّسانيّة الرائجة وقتئذ وإصباغها بصبغة علميّة فهذا مختار زاوي يفند هذا المولود العلميّ "لكن التعديلات التي أجراها المحققان والانتقادات التي وجهت لهما والتحفّظات التي أبداهها عدد من الباحثين المحدثين بخصوصها ليست من شأنها أن تنقص من أهميّة عملهما قيد أمثلة، فقد حازا شرف إعادة استكشاف فكر دو سوسير (de Saussure) الأصيل وإنّما الغاية التي ما فترت عنها الجهود وهي تسعى جاهدة في وضع لبنة أخرى ترفع بها صرح لسانيات دو سوسير (de Saussure) التي لم يتوصل كتاب المحاضرات في اللّسانيات العامّة

من رسم معالمها وبيان تجلياتها³⁰ ومن ما توارد في مخطوط دو سوسير (de Saussure) مصطلح الجوهر الذي تكرر قرابة عشر مرات تارة مقترنا باللغة وتارة أخرى باللسان ثم "إنّ البحث في جوهر اللّغة أو اللسان أو الواقعة اللّغوية هو بحث عما يميّز الطبيعة الأولى للغة ولقد برز هذا التصوّر جلياً في الفقرتين اللّتين تحمّلان "عن الجوهر" عنواناً لهما ومن هاهنا نفهم تنسيته لجوهر اللّغة، ويمكننا التّعبير عن هذه الفكرة بالقول بأنّ جوهر اللّغة يتمثّل في ركنين يفترض أحدهما الآخر لا انفصام لهما أما الركن الأوّل فقد عبر عنه في حديثه عن مفهوم المماثلة، أمّا الثّاني ففي حديثه عن المخالفة"³¹ فالمسألة التي شغلت بال دو سوسير (de Saussure) هي البحث في الطبيعة الأولى للأشكال اللّسانية أو العلامات اللّسانية المرتبط وجودها باقترانها بدلالات ما أو بقيم ما "إنّه من الخطأ ومن المتعدّر أيضاً المقابلة بين الشّكل والمعنى في حين أن ما هو صحيح هو المقابلة بين الصورة الصوتية من جهة وبين الشّكل-المعنى من ناحية أخرى"³² ويقابل دو سوسير (de Saussure) بين الصورة الصوتية والشّكل في قوله: "إنّ الشّكل صورة صوتية محدّدة في وعي الأفراد المتكلّمين أي أن له فيه في الآن ذاته وجوداً وحدوداً لا أكثر ولا أقل وليس لهذا الشّكل بالضرورة معنى واضحاً بل إنه مدرك على أنّه شيء موجود فإذا ما غيرنا في شيء من مظهره العام آل إلى شيء آخر"³³ فالربط والمقابلة بين الصور الصوتية والظواهر الداخليّة المرتبطة بالوعي من جهة وبين الأشكال-المعاني والظواهر الخارجية المدركة مباشرة من جهة أخرى يشكّلان حقيقتين جديرتين منطلقاً لمقاربة سائر الوقائع اللّغويّة الأخرى.

وتنوعت مداخل اللّغويّين المحدثين إلى فكر دو سوسير (de Saussure) لاسيّما ما استجد منه على إثر نشر جوهر اللّغة لسبب تننية الجوهر في عنوان الكتاب فسيمون بوكي (Simon Bouquet) ينطلق من عرض دو سوسير (de Saussure) لطبيعة الوحدات اللّسانية؛ حيث عبّر عن تصوّره قائلاً: "إنّ ثمة جوهرين عندما يتألف كل ما من عنصرين وفق المنطق الثّالي: أوّلاً إنّ الوصل بين العنصرين ضروري لوجود الكلّ، ثانياً: إنّ العنصرين يبقيان مستقلّين ولا يقيمان فيما بينهما أيّة علاقة بنويّة (أخرى) ، ثالثاً: ينتمي كل عنصر إلى نظام يقيم علاقة مع العناصر من طبيعته علاقة بنويّة، رابعاً: إنّ الكلّ يؤسّس هو الآخر مع الكلّ، والأخرى التي هي من طبيعته، نظاماً آخر قائماً على علاقة بنويّة"³⁴ فلا يزال سوسير بعد مرور حوالي مائة سنة على وفاته يستثير القرائح والمداد ويسعى الباحثون في كلّ مرة الكّشف عن الغائب من أفكاره وتعاليمه.

ويبدو أنّ موضوع المخطوط يتعلّق بالمقابلة بين المنظور الصّوتي للسان الذي يفترض تتابعا وتجرداً من المعنى وبين المنظور المورفولوجي (التّحوي) الذي يفترض وحدة العنصر وأخذ المعنى والقيمة والاستعمال بعين الاعتبار، ولقد عبّر دو سوسير (de Saussure) عن هذه الفكرة الرئيّسة في كتاب جوهر اللّغة بقوله: "إنّنا كلما اتّخذنا المنظور الآني مسلكاً إلا واستقرّ اليقين

لدينا بأنّ لا شيء من الوضع اللساني هو من قبيل الصوتيات ولن كان ثمة في نحو لسان ما، في حقبة زمنية ما، ما هو فعلا من قبيل الصوتيات فذلك لأننا نظرنا فيه مقارنين إياه بحقبة زمنية أخرى (بدء بالتعبير به بطريقة أخرى) ونكون في هذه الحالة قد تخّلينا عن المنظور الآني ومزجنا بين وجهتي نظر لا شيء يدعو على امتزاجهما ولن كنا خلافا لما سبق نزوم التعبير عن هذا الحدث من خلال الاستقرار منهجيا في حقبة زمنية ما سيغدو مستحيلا التحقق مما يجعل هذا الحدث يختلف عن حدث سيميولوجي ما (أو إن شئنا مورفولوجي ما) كما هو الشأن مثلا بالنسبة للمقابلة القائمة بين *lupus* و *lupum* أو المقابلة بين *estu* و *tu es*³⁵ ويتّضح من هذا تحديد دوسوسير لشروط مبادئ علم السيميائيات من المورفولوجيا التي تتحدّد من جوهر اللّغة، والتي تفرض وحدة العنصر وأخذ المعنى والقيمة والاستعمال من الوضع اللسانيّ.

إننا لا نتحرّج في التمييز بين ثلاثة أنواع من اللسانيات السائدة في أدبيات الفكر العربيّ الحديث (في الوطن العربي) أمّا النوع الأوّل منها فهو قطاع اللسانيات العربيّة وهو مجال عادة ما تحركه الأقلام العربيّة ولن وجدت في بعض الجامعات العربيّة بعض الأقلام من ألّفت فيها باللسن أجنبيّة (عادة فرنسيّة أو انجليزيّة) فهي قليلة جدا مقارنة بما كتب عن اللسانيات العربيّة بلسان عربي. وكان هذا النوع السائد الوحيد قبل مطلع الأربعينيات من القرن الماضي أمّا النوع الثاني فهو قطاع اللسانيات الغربيّة المعرّب باللسان العربي وهو مجال لسانياتي سرعان ما بدأ يزاحم اللسانيات الغربيّة منذ ترجمة المؤلّفات الرائدة في اللسانيات الغربيّة بدء بترجمة كتاب المحاضرات المنسوب لدو سوسير أمّا النوع الثالث من اللسانيات فهو قطاع اللسانيات الغربيّة المعبر عنه باللسن الغربيّة (عادة الفرنسيّة والانجليزيّة)³⁶ ولم يكن هذا التلقّي في بادئ الأمر إلّا ترجمات من اللّغة الأجنبيّة إلى اللّغة العربيّة و"لن ألقينا النظر مرة أخرى في ما استجد من فكر دو سوسير (de Saussure) لا تضح لنا دون أدنى ريب أنّ الادّعاءات التي تزعم أنّه كان بنويّا صرفا ادّعاءات لا أساس لها من الصّحة ولقد بلغت هذه الادّعاءات مستوى من الغلو نتيجة جهل إلى درجة أنّها باتت تقابل بين نموذج دوسوسير المؤسس الأوّل للسانيات ونموذج جون أوستين المؤسس الأوّل للتداوليات"³⁷ ويشير مختار زاوي في هذا القول إلى مدى إصرار الباحثين على اتّهام فكر دو سوسير (de Saussure) بالتّقصير والإفراط في مدارسة اللسان على الكلام في حين أنّ مخطوطاته الجديدة توحى بأنّه اهتمّ بالكلام، ويُرجع مصطفى غلفان سبب ادّعاءهم بإقصاء دو سوسير (de Saussure) الكلام من دائرة اللسانيات إلى أنّ اهتمام وانصراف سوسير للسان من دون الكلام "لم يأت اهتمام سوسير بمفهوم اللسان الذي غالبا ما اعتبر اهتماما صورياً مبالغا فيه مصادفة وإمّا هو نتيجة لردّ فعل ضدّ اهتمام لسانيات عصره المفرط بالفعل الفردي في النّشاط اللّغوي"³⁸ "وإنّ استخلاص فكر دو سوسير (de Saussure) الأصيل ممّا هو شائع في أدبيات اللسانيات والسيميائيات

الحديثين ليس بالأمر اليسير، لأنه يقتضي التفرغ أولاً للإحاطة بمحيثيات مشروع نشر المحاضرات العامة التي ألقاها دو سوسير (de Saussure) بجامعة جنيف والتعرّف على الظروف التي أحاطت به، ولأنّ الكتاب لم يكن من وضع دوسوسير (de Saussure) ووجب ثانياً التحقّق من مدى وفاء التّأشيرين في التّعبير عن فكر دو سوسير (de Saussure) اللّسانيّاتي و السيميائيّاتي تعبيراً صادقاً وأميناً، لا تدخله زيادة ولا نقصان، لكن البحوث أبانت عن عكس ذلك، أبانت عن فشل شارل بالي (Charles Bally) و ألبر سيشهاي (Albert Sechehaye) في بيان فكر دو سوسير (de Saussure)، لأنّهما ما حضرا يوماً درساً من دروس هذه المحاضرات وما كانت كراسات الطلبة التي استعانا بها كفيّلة بأن تعوض عنهم هذا النقص فليس المخبر كالمعادين³⁹ وقد وفقت التّرجمات لكتاب دو سوسير (de Saussure) باعتراف المختصّين في نقل كتاب المحاضرات في اللّسانيّات العامّة نقلاً أميناً وظلّت التّرجمة الوحيدة المعتمدة في لسانها وكفلت لأجيال تعاقبت عليها استقراراً ومصطلحاتياً، خلافاً للتّرجمة العربيّة التي ظهرت في ثمانينيّات القرن الماضيّ خمس روايات منها، نُجحت كل واحدة منها سبيلاً فأضرت أكثر ما نفعت⁴⁰ وقد أسهم نشر بعض كراسات طلبة دو سوسير (de Saussure) في الكشف عن الكثير من جوانب الخلل الذي طال الكتاب الذي ألفه انطلاقاً منها شارل بالي وألبر سيشهاي، ولعلّ الفضل الأوّل في التّعريف بفكر دو سوسير اللّسانيّاتي الأصيل يعود بالدرجة الأولى إلى روبر غودال الذي مكن المجتمع العلمي من الاطلاع على المخطوطات الأصليّة لكتاب المحاضرات (1959م) وهو الكتاب الذي استند إليه رودلف أنغلر (Rudolf Engler) لإعداد طبعته النقديّة لكتاب المحاضرات⁴¹ وأكبر عبء في كتاب محاضرات أنّه لا يعتبر ترجمة خائنة بل اختزال خائن لفكر دو وسوسير حقيقة وأنّهما يجعلان ما يريد؛ ولأنّ فكر الأستاذ يبتعد كلّ البعد عن فكر المتلقّي الطّالب.

وقد توغلّت أفكار مخطوطات دو سوسير (de Saussure) إلى أذهان الباحثين اللّسانيين لمواجهة المواجهة الحاسمة في التّفكير الحاضر الغائب سوسير الحاضر في مخطوطاته والغائب في كتاب محاضرات في اللّسانيّات العامّة، ومن الطبيعي أن يكون القرن الحادي والعشرين حافلاً بتطوّرات اللّسانيّات على السّاحة الغربيّة والعربيّة وتأتي الاقتباسات لكلّ الباحثين لفكر دو سوسير (de Saussure) من مخطوطاته والتي تأتي من كلّ فج عميق ولقد عدّ مصطفى غلفان القواسم المشتركة بين تلقّي لسانيّات سوسير في الماضي وتلقّيها اليوم⁴² :

أ- حضور سوسير الوازن في صلب اللّسانيّات الحديثة؛
 ب- استمرار تداول اسم سوسير ونص دروس؛
 ج- التّأويل المتعدد لمفاهيم سوسير وتصوّراته؛
 د- انعدام ولوج فكر سوسير مباشرة؛
 هـ- ظهور نصوص جديدة لسوسير أهمّها نصّ في الماهيّة المزدوجة للغة.

قسّم مصطفى غلفان تلقّي لسانيات سوسير إلى مرحلتين أساسيتين⁴³:

أ- **مرحلة التلقّي المباشر**: أومرحلة البحث عن سوسير الحقيقي (le vrai Saussure) أو سوسير الأصيل (saussure l'authentique) التلقّي المباشر: من صدور الطبعة الأولى من دروس في اللسانيات العامة سنة 1916م إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين" يتميز تلقّي دروس في اللسانيات العامة في المرحلة مباشرة بمشاركة كبار لغويّ هذه الحقبة الذين عملوا على تقديم عروض (comptendu) موجزة تعرّف بالكتاب مثل ما هو مألوف ومعمول به في منابر الدورتّات العلميّة المحكمة ونذكر من بين هؤلاء المتلقّين على سبيل التمثيل لا الحصر بعض الأسماء الرائدة في تاريخ الفكر اللغوي الحديث أمثال: أنطوان مييه (Antoine Meillet) وأوتوياسبرسن (Otto Jespersen) (1860-1943) وهوغو سوخاردت (Suchhardt) (1842-1927) وليونارد بلومفيلد (L.Bloomfield) وموريس غرامون (Maurice Grammont) (1866-1946) وجوزيف فنديرس (Joseph Vendreyes) (1875-1960) صاحب كتاب اللّغة، وويلز R.S.Wells⁴⁴ وتبيّن من هذه المرحلة مرحلة التلقّي المباشر؛ أي تلقّي كتاب محاضرات في اللسانيات العامّة الذي جمعه ورتبه وصنّفه وألفه شارل بالي (Charles Bally) و ألبير سيشهاي (Sechehaye) (Albert) في سنة 1916 سيطرت هذا الكتاب على أذهان هؤلاء المتلقّين الذين تلقفوا آراء لهذين المؤلفين دون أن يستقرّوا أعماق أفكاره هل يمكن اعتبار هذه الأفكار والمضامين التأسيسيّة لعلم اللسانيات تعود لسوسير الذي قدّم علمًا جديدًا لم يكن، وأراد ما سيكون وما كان، ويتبين" في العام 1996م وكهبة من السماء وجدت حزمات من المدوّات الرّاقدة في دفيئة البرتقال في قصر عائلة دو سوسور في جينيف خلال بعض الأشغال وكم كانت دهشة المكتشفين كبيرة، ثمانون عاما تقريبا بعد وفاة دو سوسور وقد جعل كل من سيمون بوكيه ورودلف إنغلر هذه الملاحظات سهلة المنال في العام 2002م⁴⁵ وبالتالي " لا يمكننا سوى التسليم بالأمر الواقع : لم يقرأ دو سوسير سوى بشكل جزئيّ؛ إذ إنّ المخطوطات التي من شأنها أن توضح بعمق فكره لم تظهر سوى تدريجيًا . كنا نعتقد أنّ أساس نظريّة دو سوسير بجوزتنا وها نحن أمام هذه الأحجّيّة الضّخمة المؤلّفة من عناصر متفرّقة لفكر عبقرى ولامع فما جمع من هذه العناصر والتلخيص الذي وضع لها، بالإضافة إلى صمت دو سوسير كل ذلك أدّى إلى تحويلها إلى قطع، قطع ساطعة يجب جمعها وتحليلها ومقارنتها ومطابقتها الواحدة مع الأخرى وبالطبع يجب تفسيرها في مجملها رغم الأجزاء الكبيرة الغامضة التي تظهر فيها"⁴⁶ وبعد ظهور مخطوطات دو سوسير (de Saussure) بخطّ يده جعل من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامّة يبقى في كل لحظة محط غموض أو شكوك وتظهر هذه المخطوطات بطلان ما كان يعتقد سابقا فيما يخصّ تفضيل دو سوسير (de Saussure) لسانيات اللّغة على لسانيات الكلام أو العكس فلم يتبنّ لا هذا ولا ذاك وإمّا الاثنان معًا،

وتظهر المخطوطات أيضا ما كان يعتقد في مسألة إهمال دو سوسير (de Saussure) للبعد الاجتماعي للسان فلقد انتبه إلى هذا الجانب " واقع اللسان الاجتماعي قبل كل شيء " ⁴⁷ وفسر أين يظهر هذا البعد الاجتماعي في القيمة التي تشكل طريق المرور بين داخل اللسان وخارجه وبين نظام اللسان ووعي الأشخاص المتكلمين ⁴⁸ وتحدث دو سوسير (de Saussure) عن الفرق بين اللسان ونظام اللسان في اللغة واللغة كنسق عام، والكلام كمنتوج فردي، ولا يمكن الفصل بينها؛ لأن دراسة الكلام هي تؤدي إلى دراسة اللسان، ودراسة اللسان هي تؤدي إلى دراسة اللغة، واللغة هي النظام العام لهما.

ب-مرحلة التلقي غير المباشر :

تمثّل معظم آراء واعتراضات أنطوان ميه مرحلة التلقي غير مباشر؛ حيث تمثّلت في نقد ومعارضة كتاب محاضرات في اللسانيات العامة؛ ولأنّها في الحقيقة لم تكن مكتملة عند مؤلفها دو سوسير ولا مهيأة للنشر، ولم يكن طلابه سوى مبتدئين ولا يمكنهم صياغة تصوّرات سوسير الحقيقية، فأوّل من تحدث عن كتاب دروس في اللسانيات العامة مباشرة بعد صدوره هو أنطوان ميه يقول مصطفى غلفان: " يشير ميه إلى أنّ هذه السلسلة من الدروس التي ألفت على طلبة مبتدئين لم تكن موجهة للنشر ولا مهيأة له وأنّ الكتاب المقدم إلى القارئ ليس إلاّ صياغة لتصوّرات سوسير قام بها الناشران " ⁴⁹ فهذا يشير إلى أنّ كراسات الطلبة التي اعتمدا عليها سيسهاي وبالي يستحيل أن تكون قابلة للنشر بمعنى أنّ عمل الباحثين أضاف الكثير من التعديلات التي لا تعبّر عن فكر سوسير لعدم اكتماله.

وعليه "إنّ دراسة لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد ينبغي أن تتبع أسلوبا نقديا مبنيا على ركائز تصوّرية ومنهجية يكون الهدف منها:

أ- النظر إلى تصوّرات سوسير التي يجسدها نصّ دروس وغيره كنسق تصوّري متكامل وشامل قائم بذاته ومرتبطة بتصوّرات أخرى لمعاصريه وسابقه؛

ب- مراعاة الغايات والطرائق التي رسمها سوسير نفسه لمباحثه في اللغة والأدوات المعرفية التي اعتمدها؛

ج-عدم اختصار لسانيات سوسير في لائحة من المفاهيم والثنائيات إمّا معزولة بعضها عن بعض وإمّا منفصلة عن النسق التصوّري العام لصاحبها الذي يندرج بدوره في سياق معرفي يشترك فيه سوسير مع سابقه ومعاصريه من اللغويين؛

د-تطوير لسانيات سوسير ذاتها بدفعها نحو الانفتاح على مجالات معرفية أوسع مثل نظرية التلقظ Enonciation أو السوسيو لسانيات (Sociolinguistique) أو تحليل الخطاب (Analyse du discours) أو التداوليات (Pragmatique) وهي المجالات التي اعتبرت بمثابة نقاط ضعف حقيقية لا في لسانيات سوسير وحدها وإنما في مختلف التيارات والتوجهات التي انبثقت عن تصوّراته ⁵⁰ نلمس من خلال ما ذهب إليه مصطفى غلفان دعوة

صريحة إلى إعادة قراءة فكر دو سوسير (de Saussure) بأسلوب نقديّ بناءً يحكمه نسق تصوّري كامل للقضايا التي تناولها دون تزييف ولا أدنى إضافة.

الخاتمة: من كل ما سبق ذكره، فإنّ مخطوطات سوسير الجديدة أسهمت إلى حدّ ما في إنارة فكره الذي تمّ تزييفه عبر كلّ هذه السنوات من خلال كتاب اختزل أفكاره وتصوراته في مجموعة من الثنائيات، وفي مدارس بنيويّة ضيقة من زاوية اللسانيات العامّة، وهذا ما حال دون تلقّي سوسير الحقيقي وهذا بشهادة الكثير من الدارسين مثلما رأينا مع مصطفى غلفان.

أضف إلى ذلك بيّنت دراستنا هذه وبعد رصد مراحل التلقّي لكتاب دو سوسير أنّ سمات هذا التلقّي يختلف سواء في الأقطار العربيّة أو الغربيّة ولكن يمكن القول بأن السّمة البارزة هي التّقد اللادعّ الذي طال كتاب المحاضرات من قبل معاصريه، ذلك أنّ طبيعة تلك القراءات التي طالت تصوّراته التي تتراوح بين اللسانيّة والأدبية والفلسفية والابستمولوجية، كما أن الانتقادات التي توالّت على كتاب المحاضرات في اللسانيات العامّة منذ العقود الأولى ترجع إلى طبيعة تكوينه وكيفية ترتيب أجزائه وفصله، إلّا بعد العثور على مخطوطات سوسير أين لاحظ الباحثون واللّغويون اختلافًا نظريًا ومنهجيًا بين طبعة 1916م والنشر الجديدة لمحاضرات في اللسانيات العامّة خصوصًا تلك المتعلّقة بالماهية المزدوجة للغة، وعلى العموم لقد أسهمت الدّراسات السّوسيريّة الجديدة في إمطة اللّثام عن جزء من الغموض الذي تضمّنه متن كتاب المحاضرات؛ وبالتالي أضحت الحاجة ملّحة لإعادة النّظر من جديد في تاريخ اللسانيات في ضوء ما استجدّ من فكر دو سوسير (de Saussure) وإعادة النّظر في كثير من مسلمات اللسانيات الحديثة والقديمة.

الهوامش:

- 1- مختار زواوي، دو سوسير من جديد مدخل إلى اللسانيات، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية ناشرون، الجزائر، لبنان، 2017م، ص 45.
- 2- مختار زواوي، المرجع نفسه، ص 47.
- 3- مختار زواوي، المرجع نفسه، ص 50.
- 4- مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقّي الجديد، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2017، ص 34.
- 5- ينظر: مختار زواوي، دو سوسير من جديد مدخل إلى اللسانيات، المرجع السابق، ص 53.
- 6- المرجع نفسه، ص 53.
- 7- المرجع نفسه، ص 54-55.
- 8- المرجع نفسه، ص 57.
- 9- المرجع نفسه، ص 60.

- 10- المرجع نفسه، ص 62.
- 11- المرجع نفسه، ص 63.
- 12- المرجع نفسه، ص 64.
- 13- المرجع نفسه، ص 64-65.
- 14- المرجع نفسه، ص 65.
- 15- مصطفى غلفان، ص 72، نقلا عن: Louis Hjelmslev, langue et parole, in cfs, n°2, 1942, Genève, Doz, (2éme tirage 1967, pp.29-44.
- 16- مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد، المرجع السابق، ص 74.
- 17- مختار زواوي، دو سوسير من جديد مدخل إلى اللسانيات، المرجع السابق، ص 66.
- 18 - مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد، المرجع السابق، ص 213.
- 19 -ينظر: ميشال أرفيه، البحث عن فرديناند دو سوسير، محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1، بيروت، لبنان، 2009، ص10.
- 20-علي عبد الواحد واقي، علم اللّغة، نخصة مصر للطباعة والنّشر والتوزيع، ط9، القاهرة، مصر، 2004، ص 4-5.
- 21- فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدّرس اللّساني العربي الحديث: دراسة في النشاط اللّساني العربي، إيتراك للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، ص22.
- 22- مصطفى غلفان، اللّسانيات العربيّة الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ، ط1، منشورات كلية الآداب، عين الشق، الدار البيضاء، المغرب، 1998 م، ص107.
- 23- ياسين بوراس، البحث اللساني في الفكر العربي المغاربي المعاصر ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، 2015، ص59.
- 24- مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد، المرجع السابق، ص26.
- 25- مصطفى غلفان، اللّسانيات العربيّة أسئلة المنهج، دار ورد الأردنية للنّشر والتوزيع، ط1، 2013م، ص183-184.
- 26- مصطفى غلفان، اللّسانيات العربيّة أسئلة المنهج، ط1، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ، الأردن، 2013، ص188.
- 27- عبد السلام المسدي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، ط1، الدار العربيّة للكتاب، 1981م، ص368.
- 28- مصطفى غلفان، اللّسانيات أسئلة المنهج، المرجع السابق، ص217.
- 29- مختار زواوي، من المورفولوجيا إلى السيميائيات، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2019، ص 31-32-33.
- 30- مختار زواوي، من المورفولوجيا إلى السيميائيات، المرجع نفسه، ص35.
- 31- مختار زواوي، من المورفولوجيا إلى السيميائيات، المرجع نفسه، ص37.
- 32- مختار زواوي، من المورفولوجيا إلى السيميائيات ، المرجع نفسه، ص38.
- 33- مختار زواوي، من المورفولوجيا إلى السيميائيات، المرجع نفسه، ص38.

- 34- مختارزواوي، من المورفولوجيًا إلى السيميائيات، المرجع نفسه، ص40.
- 35- مختارزواوي، من المورفولوجيًا إلى السيميائيات ، المرجع نفسه، ص42.
- 36- مختار زواوي، دو سوسير من جديد، المرجع السابق، ص128-129.
- 37- مختار زواوي، دو سوسير من جديد، المرجع نفسه، ص199.
- 38- مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقّي الجديد، المرجع السابق، ص 20.
- 39- مختار زواوي، دو سوسير من جديد، المرجع السابق، ص 21.
- 40- مختار زواوي، دو سوسير من جديد، المرجع نفسه، ص 22-23.
- 41- مختار زواوي، دو سوسير من جديد، المرجع نفسه، ص 34.
- 42- ينظر: مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقّي الجديد، المرجع السابق، ص8.
- 43- مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقّي الجديد، المرجع السابق، ص27.
- 44- مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقّي الجديد، المرجع نفسه، ص28.
- 45- لويك دوبيكير، فهم دو سوسير وفقا لمخطوطاته، تر: ريمّة بركة ، ط1، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، لبنان، 2015، ص40.
- 46-- لويك دوبيكير، فهم دو سوسير وفقا لمخطوطاته، المرجع نفسه، ص41.
- 47-- لويك دوبيكير، فهم دو سوسير وفقا لمخطوطاته، المرجع نفسه، ص44.
- 48- لويك دوبيكير، فهم دو سوسير وفقا لمخطوطاته، المرجع نفسه، ص47.
- 49- مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقّي الجديد، المرجع السابق، ص33.
- 50- مصطفى غلفان ، لسانيات سوسير في سياق التلقّي الجديد، المرجع نفسه، ص61.